حضـــارة متداعيـــة

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد :

ليس من شك فى أن المشروع الذى قامت عليه الحضارة الأوربية المعاصرة استبعد الدين تماماً[1] ، فما الذى قام بدور الدين فى هذه الحضارة ؟

هل قامت الفلسفة الأوربية بهذا الدور ؟

يقرر أنبرت شفيتزر أن الفلسفة الأوربية المعاصرة انصرفت عن القيام بدور إيجابى فى هذا المجال ، سواء على المستوى العالى من الفلاسفة ، أو على المستوى الشعبى من أتباعهم ، وذلك لأنها ــ أى هذه الفلسفة المعاصرة ـ تقلصت وانحسرت إلى مجالات ثلاثة :

١ – الفلسفة النقدية التى أسفرت عن الشك فى كل القيم العقلية والأخلاقية الراسخة .

٢ – اللهاث وراء العلم ، الذى أصبح فى نظر الفلسفة المعاصرة (هو الذى من حقه أن يقدم الحقيقة الواقعية ، وهو بعد ذلك إنما يقدمها ـ لا كحقائق ثابتة ـ ولكن كفروض ونظريات .)[2]

٣ – الاستغراق فى دراسة ماضى الفلسفة ، حيث أصبحت الفلسفة من هنا مجرد علم يستخلص النتائج التى وصلت إليها العلوم الطبيعية والتاريخية حتى أصبحت الفلسفة عملياً هى تاريخ الفلسفة .[3]

وبهذا أصبحت الفلسفة (خاوية من التفكير الحقيقى وراحت تتأمل فى النتائج التى وصلت إليها العلوم الجزئية ، لكنها فقدت القدرة على التفكير الأصيل .)[4]

---

(١) وإن كان يلجأ إليه فى أغراض عارضة .

(٢) فلسفة الحضارة ص ١٤ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦ .

(٤) المصدر السابق ص ١٧ .

يقول : ومنذ ذلك الوقت والأفكار الأخلاقية التى تقوم عليها الحضارة تجوس أنحاء العالم فقيرة لامأوى لها ، ولم تتقدم نظرية فى الكون لتسندها إلى أساس متين .) [1]

هذا لايعنى أنه ليست لهذه الحضارة إيجابيات شامخة :

فى مجال العلوم ، والتخصص ، والتكنولوجيا ، وتوزيع العمل ، والانتاج والتسويق ، والاستهلاك ، واختزال المعرفة (الكمبيوتر) واختزال الزمن والمكان ، وهى اليوم تتربع على عرش العلم ، وتملك قوة الذرة ، وتمشى على القمر ، وتجوب الفضاء وتزرع قلوب الموتى فى الأحياء ، وتصنع أجناساً جديدة من النبات والحيوان بالهندسة الوراثية ، وتفجر الطاقة الكهربائية من شعاع الشمس ، وتصنع السدود والأنفاق والكبارى مئات الكيلومترات ، وتحفر تحت المحيط أنفاقاً مثل المدن . [2]

وبشىء من التحديد فإن إجمالى الناتج القومى فى أمريكا يبلغ أكثر من ٢٠٪ من إجمالى الناتج القومى العالمى ، وفيها أكبر عدد من أصحاب الملايين ، وأصحاب البلايين ، ففيها ٦٤ ألف مليونير ، و ٥٠٪ من إجمالى عدد أصحاب البلايين فى العالم ، ولديها قدرات نووية تدمر الكرة الأرضية ست مرات إذ تملك أكثر من ٢٥ ألف رأس نووى ، ولازالت هى الدولة الوحيدة فى العالم التى تنفق سنوياً ٢٨٠ مليار دولار ـ أى مليون دولار فى كل دقيقة على مدار السنة ـ على انتاج الأسلحة وتطويرها بكل أشكالها وأنواعها .[3]

***

لكن تعالوا بنا نتجاوز هذه القشرة الخارجية لنلقى نظرة على الخواء الذى ينخر كالسوس فى عظام هذه الحضارة .

---

(١) المصدر السابق ص ١٤ .

(٢) أنظر مقال للدكتور مصطفى محمود بالأهرام ١٩٩٢/١٠/٣١

(٣) بحث للدكتور عبد الخالق عبد الله بجريدة الخليج فى ١٩٩٢/٩/٢١ .

يقول ألبرت شفيتزر : (إن الاتساع الرائع فى المعارف المادية والقوة لايكون جوهر الحضارة .) [1]

(وإن الأعمال المبتكرة : عقلية ومادية لاتعطى آثارها الحقيقية إلا إذا استندت الحضارة فى بقائها ونمائها إلى استعداد نفسى يكون أخلاقياً حقاً.) [1]

وأنه (إذا فقد الأساس الأخلاقى تداعت الحضارة حتى لو كانت العوامل العقلية والفنية والمادية تعمل عملها فى اتجاهات أخرى .) [1]

ثم يقول (إن مستقبل الحضارة يتوقف على تغلبنا على فقدان المعنى واليأس اللذين يميزان أفكار الناس ومعتقداتهم فى هذه الأيام ...

ولن يكون فى وسعنا ذلك إلا إذا اكتشف غالبية الناس لأنفسهم معنى أخلاقياً عميقاً راسخاً عن طريق نظرية أو عقيدة فى الكون .

وبغير مثل هذه التجربة الروحية العامة لاسبيل إلى المباعدة بين عالمنا وبين الانهيار الذى يغذ فى السير إليه .) [2]

وهاهو تشارلز فرانكل فى كتابه " أزمة الإنسان الحديث " يشير إلى أن كثيراً من فلاسفة العلم المعاصر مثل مرتيان ونيبور ومانهيم يتحدثون عن (التقدم الفكرى والعلمى - وهو أكبر مفخرة لما أتاه الانسان الحديث - على أنه مجرد أحبولة وخداع ، وأن هذا العالم الحديث قد أعطى مكاناً مركزياً فى الحضارة لجزء من الحياة البشرية ، ليس فى حقيقته سوى جزء صغير بالنسبة إلى الأجزاء التى تعمل على التقدم الإنسانى ، وإن حماسة كوندورسيه وجون ستيوارت مل للعلم الحديث وإيمانهما بالعلم وأملهما فى المستقبل تنبذ — الآن - على أنها أوهام قوم ، معرفتهم بالطبيعة البشرية مسطحة جداً ، مثل مفهومهم لإمكانات الحياة البشرية ومعضلاتها .) [3]

---

(١) فلسفة الحضارة ص ١ .

(٢) المصدر السابق ص ٧

(٣) أزمة الإنسان الحديث ص ١٥٢ - ١٥٣ ، وهذا يذكرنا بمدبر الحضارة الإسلامية (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

ويقول البرت شفيتزر (لن نفلح فى بناء حضارتنا على أساس ثابت وطيد إلا إذا تخلصنا نهائياً من الفكرة السطحية عن الحضارة ـ هذه الفكرة التى نتشبث بها وتملك علينا أنفسنا ـ ثم نأخذ من جديد بالنظرة الأخلاقية ...)

ويقول (يجب أولاً أن نكون متأهبين للعمل الايجابى فى العالم والحياة ويجب ثانياً : أن نكون أخلاقيين .) [١] ثم يقرر أنه لاسبيل إلى اقناع الناس (بالأخلاق عن طريق الدعوة والوعظ بل لابد من أن تنشأ العقلية الايجابية الأخلاقية التى تنبع من نظرة عقدية تشمل الكون والحياة ...) [٢]

ثم يقول (هذا هو المصير الذى انتهينا إليه :

لقد فقدنا كل نظرية الكون .) [٣]

ثم يقرر حقيقتين هامتين : (أن طابع الحضارة أخلاقى فى أساسه وأنه لابد من ارتباط وثيق بين الحضارة وبين نظرتنا إلى الكون .) [٣]

ثم يقول (لم يكن ذنب الفلسفة أن الفكر المجرد لم يفلح أبداً فى بناء نظرية فى الكون ذات طابع متفائل أخلاقى ، إنما أذنبت الفلسفة فى حق هذا العصر بعدم اعترافها بهذه الواقعة وإصرارها على أوهامها ، وكأن فى ذلك فعلاً مايعين على تقدم الحضارة .) [٤]

حتى فى مجال تحرير الرقيق نجد الخواء ...

يقرر أرنولد توينبى أن المحرر قانوناً لم يكن أحسن حالاً من مملوك مسلم إذ يقول (بالنسبة لهذا المملوك فإن استرقاقه الشرعى قد يفتح له الطريق أمامه ليصبح سيد عدد من المحررين قانوناً ، أى المعتقين شرعاً ، إذ العتق يشمله هو أيضاً .)

ثم يقول : (والسود فى الولايات المتحدة الذين حرروا قانوناً فى سنة ١٨٦٢ لايزالون يشعرون إلى الآن ، وقد مر على تحريرهم أكثر من قرن ،

---

(١) فلسفة الحضارة ص ٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٦ ـ ٧ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨ .

بأن الغالبية البيضاء من مواطنيهم لاتزال تنكر عليهم حقوقهم المدنية الكاملة ، وهم فى شعورهم هذا على شيء كثير من الحق [1]

ويقرر رشدى فكار أن الحضارة المعاصرة تفخر بانجازاتها على مستوى السلبيات :

١ - الحروب المدمرة الأولى والثانية [2] .

٢ - تعدد وسائل الفناء للبشرية كأنما لاتكفى المتفجرات الذرية ، وإنما أضيفت إليها الهيدروجينية والكيماوية والبيولوجية .

٣ - عصر تشرنوبيل وماأحدثته من رعب بالتلوث الذرى وماحملته من سموم رياح الشمال القاتلة ووصلت أصداؤها إلى الجنوب ، وأتلفت آلاف الأطنان من المحاصيل والمنتجات .

٤ - عصر المضاربات التجارية ، ليس فقط فى البنيات الاقتصادية وإنما فى المستخرجات الطبية والصيدلية سعياً وراء الربح .

٥ - وتعدد أنواع الأدوية والسموم بحثاً عن الكسب ولو لحساب إفشال الكبد والكلى .

٦ - التلوث القيمى حيث يفاخر البعض بخروجهم على القيم والتقاليد والتنكر لكل رباط مقدس حتى المحرمات أبيحت باعتبار أنها مجرد (تابو)[3] .

٧ - وأسست جمعيات [4] لاباحة العلاقة مع المحارم .

٨ - كما أبيح الشذوذ الجنسى وشرع للعلاقة المثلية فى مجال الجنس .

---

(١) تاريخ البشرية ص ٢٤ الجزء الأول نشر الأهلية للنشر والتوزيع بيروت ١٩٨١ ترجمة د. نقولا زيادة .

(٢) وأضيف : والثالثة المستمرة من انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فى البلاد الإسلامية ابتداء من مسلسل فلسطين إلى البوسنة إلى الشيشان .. الخ

(٣) نهاية عمالقة ص ١٣٢ .

(٤) وأضيف : وأقيمت مؤتمرات ، وصيغت قوانين .

٩ - وأصبح موكب الفضائح الأخلاقية بما فيه من رشوة وجنس وعلاقات جنسية ، علنياً ، على كل المستويات ، وأصبح قاسماً مشتركاً لاينفصل عن العظمة [١] !!

١٠- وأصبح المنتحرون على مستوى كبار الأدباء ، والقادة والمتخصصين فى الدراسات النفسية والاجتماعية والانثروبولوجية من أمثال : جاكوب مورينو ، وجان لوفيفر وهمنجواى ، ومارياكالاس ، وداليدا ... إلخ .

وقامت المراهنة الصناعية على دعائم فاسدة من :

تلوث البيئة بافتقاد سلامة الجو ،

وتلوث الجسد بالكيمائيات ...

وتلوث العلاقات الاجتماعية ، بأمراض الجنس والايدز .

وتلوث العلاقات القومية بالفتن والقلاقل وبرك الدماء ؛

وتلوث العلاقات السياسية والاقتصادية بالزيف والغش والمضاربة :

حيث أعطيت لها أسماء التكتيك والاستراتيجية ومناطق النفوذ .

وصارت حضارة العقل التى قدمت اللامعقول على حد تعبير برتراندرسل . [٢]

***

وإذا كان الردع النووى الذى يحتكره كبار السدنة فى هذه الحضارة هو الذى يؤجل انهيار المعبد على رءوس الجميع فهل بقى فى المعبد رادع أخلاقى أو عقلانى يمنع انفلات الكارثة النووية الشاملة ؟

وماذا تكون هذه الكارثة المحتملة والتى إن لم تقع فإنها تؤثر سلبياً بمجرد احتمال وقوعها .. ؟

ماذا تكون هذه الكارثة ؟

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٧ .

سؤال طرحته منظمة الأمم المتحدة على عشرة من كبار العلماء فى العالم ـ من بينهم أ. الدكتور محمد عبد الفتاح القصاص ـ واستغرقت الدراسة حوالى عام ، وتم تسليمها إلى بيريز دى كويلار السكرتير العام للأمم المتحدة آنذاك .

وكانت نتائج الدراسة على النحو التالى :

١ - سوف يموت فى الساعات الأولى مابين ٢ إلى ٣ بليون شخص .

٢ - ٢ بليون آخرون ينتظرهم شتاء نووى مظلم تنخفض فيه درجة الحرارة إلى مابين ٢٠ ـ ٢٥ درجة تحت الصفر .

وفى نهاية الشتاء النووى المظلم وبعد أن تتقشع غمامة الدخان الأسود هناك مرحلة تساقط الغبار الذرى .

٣ - تنشأ ـ عن قنبلة ذرية عادية ـ عاصفة سرعتها ٧٥٠ كيلومتراً ، وتدمر أى مبان ـ مهما كانت قوتها ـ فى بؤرة التدمير .

٤ - الموجة الحرارية الناشئة عن طاقة القنبلة تكفى لاشعال حرائق تصل درجة حرارتها إلى مئات الدرجات المئوية .

٥ - تحدث نبضة ألكترو مغناطيسية تكفى لتعطيل كل الاتصالات السلكية واللاسلكية ، وتدمير كل الأجهزة الالكترونية فى قارة أوربا [١] .

وبغير الردع النووى ماذا صنعت ـ بالفعل ـ هذه الحضارة ؟

يعلق الفيلسوف الفرنسى روجيه جارودى على ضحايا الحضارة المعاصرة فيقول :

(لقد أطلق مؤرخونا بحق اسم الغزوات البربرية على الأهرامات التى بناها تيمورلنك بسبعمائة ألف جمجمة بعد احتلاله أصفهان .

فماذا نقول عن إبادة ملايين الهنود الحمر فى أمريكا على يد الفاتحين الأوربيين أصحاب المدافع ؟

---

(١) الأهرام ص ٣ ، ١٩٨٨/١٠/٩ .

وماذا نقول عن "تخريب أفريقيا بانتزاع حوالى عشرين مليوناً من سكانها السود مما يعنى أن عدد الضحايا بلغ مائتى مليون إذ كان أسر كل أسير يكلف قتل عشرة أفراد .

بل ماذا نقول عن مذابح آسيا وحرب الأفيون ؟ والمجاعات التى فتكت بملايين الهنود بفضل الاستعمار وفرض الضرائب ؟

وماذا نرى فى ضحايا الحرب العالمية الأولى والثانية ؟

وماذا نرى فى قنبلة هيروشيما ؟

وماذا نرى فى حرب فيتنام ؟

وماذا نرى فى ضحايا فلسطين ؟

ولماذا نسمى فى عالمنا اليوم النظام العالمى للسيطرة الغربية ، هذا النظام الذى أنفق أربعمائة وخمسين ملياراً من الدولارات على التسلح عام ١٩٨٠ وتسبب فى العام نفسه فى موت خمسين مليوناً من البشر فى العالم بسبب لعبة المبادلات التجارية ؟

وهكذا - يقول جارودى - يعتبر الغرب إلى أبد الآبدين أكبر مجرم فى التاريخ .) [1]

***

وماذا عن العنف العالمى الذى تصنعه هذه الحضارة ؟

يلاحظ المراقبون السياسيون ان العالم الغربى يشهد تياراً من العنف لم يسبق له مثيل منذ نهاية الحرب الباردة ؟

الحروب الأهلية فى الاتحاد السوفيتى السابق .

وحرب الابادة فى البوسنة والهرسك .

والحروب التى تجرى فى المدن بين عصابات الشوارع : فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا ، وإيطاليا والمانيا وفرنسا واليابان ،

---

(١) مايعد به الإسلام ص ٣٧ - ٣٩ .

والتى تنظمها منظمات على أعلى مستوى من السيطرة والتحكم والادارة والمال . (١)

وهل أغنت المظلة النووية عنهم من الله شيئاً ؟!

إن الاتحاد السوفيتى تبدد وهو مسلح نووياً ، وكما يقول الدكتور مصطفى محمود (ماتت روسيا وهى واقفة بدون حرب ، وعلى ظهرها حمولة من القنابل الذرية تكفى لنسف الكرة الأرضية وفى الفضاء تدور سفينتها العجيبة " مير ") .

ثم يقول (وسوف يسقط العملاق الغربى بنفس الداء ، ودون أن يطلق عليه المسلمون (!!) رصاصة واحدة .

سوف يموت من الداخل ، هذه المرة بمرض مختلف : اسمه الترف ، والوفرة والشبع ، والتخمة ، وعبادة الشهوات ، والغرق فى الملذات .

هذه المرة الميكروب : اسمه البطالة ، و المخدرات ، والجريمة المنظمة والمافيا ، وعجز الميزان التجارى ، وصراع العملات ، وكساد السوق ...

وكعادة كل حضارة مترفة ازدهرت فنون الانحلال ، وسينما العنف ، ومسرح العبث ، وغناء العهر ، وروايات الجنس التى تخلف البلادة والاكتئاب.

ثم سر المكروبات : غرور القوة الذى يورث التمرد على كل شىء ، حتى على الخالق وقوانينه وسننه ، فنراهم يقننون الشذوذ ، ويحتفلون بزواج الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وينظر قضاؤهم فى مشاكل هذا الزواج من النفقة والحضانة والميراث وكأنهم يخرجون لسانهم لحكمة الخالق التى أعمرت لهم الأرض فراحوا يخربونها بهذا الزواج العقيم ، ويحتفلون بهذا العقم ، ويتبادلون التهانى .)

كل ذلك يهون ، أو يقاس - مع الفارق - على آثام حضارات تداعت من قبل .

لكن : هل من قياس لما تصنعه هذه الحضارة من كارثة للأرض : كوكباً ضمن المنظومة الفلكية ؟!

---

(١) الأهرام ١٩٩٢/٩/٣٠ ص ١ .

obeikandl.com

كارثة الأرض

obeikandl.com

obeikandl.com

تمر الحضارة المعاصرة اليوم بمنحنى خطير فيما يتعلق بشئون البيئة يهدد بما يطلق عليه : " مأساة الأرض " ـ ككوكب صالح للسكنى .

إن مشكلة البيئة اليوم وصلت إلى مستوى الوصف القرآنى لها فى قوله تعالى : ﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس لعلهم يرجعون .** ﴾ ٤٢ الروم .

إن الأخطار التى تهدد البيئة اليوم لم تعد أخطاراً محلية يمكن أن يقتصر ضررها على وطن ، أو إقليم ، أو قارة بعينها ولكنها أخطار تهدد بيئة الأرض كلها .

إنها أخطار تأتى على مستويات متدرجة :

فهناك أخطار تبدو ذات طبيعة محلية كالتى تتسبب فيها الفضلات ودفن المخلفات بطريقة غير مشروعة ، ولكنها تعم فيما بعد .

وهناك أخطار تبدو ذات طبيعة إقليمية كالتى تحدث بسبب الأمطار الحمضية ، وتلوث مستودعات المياه الجوفية ، وانسكاب كميات كبيرة من النفط ، ثم تعم كذلك .

وهناك فئة جديدة من المشاكل البيئية ، تؤثر فعلاً ـ من بداية الأمر ـ فى النظام البيئى العالمى ، مثل زيادة كمية الكلوروفلورفى الغلاف الجوى ، الذى زاد فى الأربعين عاماً الماضية بنسبة ٦٠٠٪ ، ومشكلة الاحترار العالمى الذى يعد خطراً استراتيجياً والذى تسببه زيادة غاز ثانى أكسيد الكربون ـ وغيره من الجزئيات التى تمتص الحرارة ـ بنسبة ٢٥٪ منذ الحرب العالمية الثانية ، حيث تشكل هذه الزيادة خطراً حقيقياً على التوازن المناخى لكوكب الأرض .

وهناك العمليات التى يتم بها قطع الغابات ، وتجفيف البحيرات ، وتحويل الأنهار ، والنفايات ، والتلوث النووى ، وتهديد التنوع الحيوى.. إلخ.

ومن الملاحظ أنّ كبار الخبراء والباحثين قد أدركوا عمق المأساة التى تتحدر إليها الأرض فى هاوية البيئة .

يقول بارى كوموز ـ كما ينقل عنه الأستاذ راشد الحمد ومحمد صبارينى[1] ـ فى كتابه الشهير الدوامة :

(أنقذوا الانسان من الموت المؤكد ، ساهموا فى مكافحة التلوث ،

إن مدينة قبائل البوشمن فى وسط إفريقيا هى أرقى من مدنية الانسان المعاصر فى البيئة المرفهة الأمريكية) [1] .

وتقول الدكتورة هند صادق أستاذة علم طبقات الجو العليا والتلوث فى واشنطن .

(إن الانسان القديم كان متفاعلاً مع الطبيعة ومع كل مظاهر الحياة من حوله .

أما مايفعله أحفاده اليوم ، فهو تدمير كل ماهو جميل ، وخير وطيب ، فى هذه الأرض التى نحيا عليها .)[2]

ويقول الأستاذ الدكتور طلبه عويس فى دراسة له نشرت بكتاب بعنوان ترجمته (من أجل الحفاظ على الأرض) مع الدكتورة هند وآخرين : (إن الانسان ابن الطبيعة قد طعنها فى مقتل .)

وفى الكتاب نفسه يقول البروفيسور أرفنج سبنتزر الأستاذ بمعهد أبحاث المناخ الأمريكى : (إنه فى انتظار الانسان كوارث عديدة نتيجة ثقب الأوزون ، فى مقدمتها تحرك حزم الأمطار من مكان لآخر ، إلى جانب ارتفاع درجة حرارة الجو ، مابين درجتين وخمس درجات ، وهذا يعنى جفافاً وتصحراً فى موجات متتالية تقضى على كل مظاهر الحياة فى إفريقيا ، بل إن

---

(١) انظر كتاب " البيئة ومشكلاتها " للمؤلفين ص ١٩٩ نشر عالم المعرفة بالكويت .

(٢) انظر جريدة الأهرام ١٩٨٩/١٢/٢٣ .

موجة الجفاف وصلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها فانخفض انتاج القمح والذرة فى وسط غرب أمريكا ...

وانخفض منسوب مياه نهر المسيسبى - أطول نهر فى العالم - بمقدار ستة أمتار) [1] .

وتُظهر صور الأقمار الصناعية للمناخ فى أوربا الشرقية كتلاً كثيفة سوداء من الغازات والأتربة الصناعية تنتشر فوق مصانع المانيا الشرقية ، وتشيكوسلوفاكيا وتغطى بولندا بأكملها .

وفى بولندا بالذات أصاب التسمم كى شىء : الجو والتربة والماء والناس .

وتتعرض أوربا الغربية أيضاً وبخاصة فى المناطق السياحية بجبال الألب لأزمة بيئية نتيجة الأمطار الحمضية والتلوث النووى .

وقارة إفريقيا توشك ألا تصلح للحياة بسبب التلوث والجفاف ، وهناك خمسون مليوناً من البشر يعيشون فى أراض متصحرة تهددهم المجاعات كل عام وينتشر القحط فى افريقيا بمعدل ٢,٣ مليون متر مربع سنوياً .

وفى الصين كلما هبت الرياح فوق المدن الصناعية انتشر دخان أحمر وأسود ليغطى الأراضى .

وفى البرازيل احترقت ملايين الأفدنة من غابات الأمازون الشهيرة التى تعتبر رئة للكرة الأرضية .

ويقول بعض الباحثين : إنه فى العاصمة المصرية - القاهرة - أصبح تنفس الهواء لايقل خطورة عن تدخين علبتى سجاير يومياً . [2]

***

إن الأرض كلها هى التى تمر اليوم بالمأساة .

---

(١) الأهرام ١٩٨٩/١٢/٢٣ .

(٢) الأهرام ١٩٩٠/٤/٢٧ .

وإن من التعتيم على حجم هذه المأساة أن يتحدث عنها البعض فى مستوياتها الأدنى ، ويحملوا المسئولية لأقل العوامل أثراً فى تدمير البيئة .

وإن من التعتيم أن يساير الخبراء خضوع الأفراد والجماهير للخدر النفسى الذى أصابهم تجاه هذه القضية ، وبالتالى تجاه أسبابها الرئيسية .

إن حجم المشكلة وصل إلى حد الوصف القرآنى لها فى قوله تعالى :

﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون . ﴾ ٢٤ ـ ٢٥ يونس .

إن التعتيم على مشكلة البيئة يجرى على قدم وساق حتى فى أكثر البلاد ديموقراطية وانفتاحاً فى وسائل الإعلام .

لحساب من يجرى هذا التعتيم ؟

لحساب اشاعة جو من التفاؤل بدلاً من اليأس ؟

نتفاءل ؟ نعم .

ويجب أن نتفاءل ؟ نعم .

ولكن يجب أن يكون تفاؤلنا صحياً وغير ملوث أيضاً .

أى يجب أن يكون مبنياً على الحقائق ، أما إذا بنى على الأكاذيب ، أو حجب الحقائق فإنه سرعان ماينهار ويأتى بأوخم العواقب .

إننا نتفاءل ولكن من خلال الحقائق ، ولو ذهبنا إلى التفاؤل بعد خوض أقصى حالات اليأس ، فاليأس حر فى بعض الأحيان ، وحافة اليأس يمكن أن تلامس عند النهاية حافة التفاؤل ، إذا مارتبط التفاؤل بالرجوع إليه سبحانه **﴿ إنه لايأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾** .

تفصيل الحقائق عن مأساة البيئة :

فيما يلى صورة مفصلة عن الأخطار التى تهدد البيئة ، تساعد على تصور حجم المشكلة ، نعتمد فى إبرازها على دراسة عالمية حديثة لهذه القضية ، جاءت فى كتاب (الأرض فى الميزان ، الايكولوجيا وروح

الانسان) لآل جور ، نائب رئيس الولايات المتحدة ، قام بها فريق كبير من الخبراء والباحثين بقيادته ، وترجمت إلى اللغة العربية ، وأصدرها مركز النشر والترجمة فى الأهرام بالقاهرة عام ١٩٩٤م .

(١) **مشكلة القمامة** : وهى تتمثل فى تيار عارم من القمامة يتدفق بكميات هائلة لم تعد الأرض قادرة على استيعابه كما يؤكد خبراء البيئة .

ويكفى أن نتأمل مثالاً لذلك فيما يسببه نمط الاستهلاك فى العالم المتحضر ، وبخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية .

فمن الفضلات الصلبة التى تفرزها المدن الحديثة هناك يتم توليد مايزيد على طن واحد لكل شخص فى الولايات المتحدة الأمريكية كل عام .

ثم هناك الفضلات الصلبة التى تنتجها المصانع ، وهى تتم بمعدل طن أسبوعياً لكل فرد فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهناك الفضلات الغازية المستمرة فى الانبعاث إلى الغلاف الجوى ، والذى يتم بمعدل عشرين طناً سنوياً من ثانى أكسيد الكربون لكل شخص فى أمريكا .

والمحصلة النهائية لحجم الفضلات فى هذه الأنواع الثلاثة تشير إلى أن كل شخص فى الولايات المتحدة الأمريكية ينتج من الفضلات يومياً مايزيد على ضعف وزنه .

ويواجه الانسان المعاصر هذه المشكلة بقدر كبير من خداع النفس ، حيث يفترض خطأ أن المواد التى تستهلك تختفى آثارها بمجرد استخدامها ، بينما الحقيقة أنها تتحول إلى فضلات فى نهاية الأمر .

وتتضاعف المشكلة فى ظل القيم الحضارية التى تفترض أن معدلات الاستهلاك العالية هى العلامة المميزة للمجتمع المتقدم .

ومن هنا فإن شهية الحضارة المعاصرة تتفتح لالتهام كميات هائلة من الأشجار والفحم والبترول والمعادن وآلاف المواد التى تنتزع من أماكنها ، ثم تقوم بتحويلها إلى منتجات من كل شكل ولون ، والى سلاسل جبال هائلة من الفضلات .

وبالمعدل الحالى فإن الانتاج العالمى من المواد الكيمائية التى يستهلكها العالم المتحضر يتضاعف الآن فى الحجم كل سبع سنوات .

وفى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها يوجد مايقدر بنحو ٦٥٠ ألف مصدر تجارى وصناعى للفضلات " الخيرة " كما يتم انتاج كميات هائلة من ملوثات المعادن مثل : الرصاص والزئبق والنفايات النووية .

ويعتبر الخبراء أن حجم القمامة فى الولايات المتحدة أصبح كبيراً لدرجة أنهم لايجدون مكاناً يضعونها فيه ، وأن تراكم القمامة أصبح خارجاً عن السيطرة تماماً ، لدرجة أن الولايات المتحدة بدأت فعلاً فى شحنها إلى البلاد الأكثر فقراً ، خارج الحدود القومية ، الأمر الذى دعا أحد زعماء إفريقيا إلى إعلان استنكاره لما سماه امبريالية القمامة ، وهو استنكار يشاركه فيه زعماء آخرون من أعضاء منظمة الوحدة الإفريقية [١] . وحيث أصبح ينظر الآن إلى افريقيا باعتبارها المضيفة الرئيسية للمواد السامة [٢] .

وإذا كان البعض يحاول التخلص من القمامة بحرقها - حيث توجهت استثمارات ضخمة إلى هذا السبيل بلغت حوالى عشرين مليار دولار فى وقت من الأوقات - فإن بعض الخبراء ينظر إلى هذه الوسيلة على أنها غير مجدية وتزيد الطين بلة ، فطبقاً لفريق البحث التابع للكونجرس فإن تلوث الهواء الناتج عن أفران حرق القمامة ، يحتوى على غازات وملوثات أكثر خطراً ، مثل الزرنيخ والكوبالت ، والرصاص ، والزئبق ، وأنه إذا مااستمرت عمليات حرق الفضلات فإن كمية الزئبق المتصاعد عن هذا الطريق تضيف ملايين الأرطال من الزئبق إلى النظام البيئى ، وكما هو معروف فإن الزئبق لايتحلل فى البيئة ولكنه يتراكم ويتركز بكميات متزايدة فى الحيوانات ، ومنها الأسماك التى يتم صيدها فى البحيرات والأنهار ، والنتيجة النهائية المترتبة على حرق الفضلات هى تحويلها إلى صورة غازية تنتقل عبر الهواء إلى المجتمعات

---

(١) انظر جريدة الأهرام ١٩٨٨/١١/٢ .

(٢) جريدة الاتحاد ١٩٨٨/١٠/٣ .

المجاورة حيث تسافر عبر حدود الدول ، ثم تصل بالضرورة إلى الغلاف الجوى لكوكب الأرض بأسره .

هذا وبينما عمليات الحرق تصدر إلى الجو ٩٠٪ من حجم الفضلات فإن الحجم الباقى وقدره ١٠٪ يكون فى صورة رماد عالى السمية ، أكثر خطورة من كمية الفضلات الأكبر حجما قبل الحرق .

أما أسلوب " إعادة التدوير " أى إدخال الفضلات فى عجلة الانتاج مرة أخرى ، فإن كثيراً من الخبراء وجدوا أن المنتجات التى تصنع عن هذا الطريق ، لاتجد الاقبال من المشترين ، فضلاً عن أن بعضها لايقبل هذه المعالجة ، وإذا فإن إعادة التدوير تظل أقل كثيراً من عمليات الحرق فى الأفران [١] .

(٢) **تلوث الهواء** : يقول بعض خبراء البيئة : إن أوصال العالم ترتعد فزعاً من مستويات التلوث التى لايصدقها عقل ، وبالذات تلوث الهواء على مستوى العالم كله .

وعلى سبيل المثال فإنه فى بعض المناطق فى بولندا يؤخذ الأطفال بصفة منتظمة إلى مناجم عميقة تحت الأرض لمدة من الوقت يريحون فيها صدورهم من الغازات المتراكمة ، والتلوث الذى يملأ الهواء بكل أنواعه .

ولقد لاحظ زائر لأحد المدن الرومانية تسمى (كوسباميكا) أو (المدينة السوداء) : أن الأشجار والحشائش ملطخة بالدخان إلى حد أنها بدت كأنها مشربة بالمداد .

وذكر أحد الأطباء المحليين هناك أنه حتى الخيول لاتستطيع البقاء فى تلك المدينة لأكثر من عامين ، وبعد ذلك لابد من أخذها بعيداً وإلا لقيت حتفها وبين الأطراف الشمالية من تشيكوسلوفاكيا فإن الهواء ملوث بدرجة خطيرة حتى إن الحكومة تدفع فعلاً حوافز مادية لمن يواصل العيش هناك لأكثر من

---

(١) انظر كتاب (الأرض فى الميزان) لنائب الرئيس الأمريكى " آل جور " ترجمة د . عواطف عبد الجليل من ص ١٤٩ إلى ص ١٧١ .

عشر سنوات . ويقول عن تلك الأموال إنها " تكاليف الدفن " وفى أوكرانيا فإن القدر الذى تضيفه الصناعة من الجسيمات الدقيقة العالقة فى الهواء يعادل ثمانية أمثال ماتضيفه الولايات المتحدة الأمريكية بكاملها .

وتعانى مدينة مكسيكوسيتى يومياً من أقسى درجات التلوث الهوائى على مستوى مدن العالم بأسره ، وعندما تستعمل المداخن العالية فى تلك البلاد لتقليل تلوث الهواء على المستوى المحلى فإنها تساعد على تفاقم المشكلة على المستوى الإقليمى ، حيث يتمثل ذلك فيما يسمى الأمطار الحمضية عالميا الأمر الذى يؤكد أن تلوث الهواء يصل من شمال أوروبا إلى المنطقة القطبية وينتقل إلى كل بقعة فى الأرض [1] .

(٣) **ثقب الأوزون** : إن غاز الأوزون وهويدخل كطبقة هامة فى تركيب الغلاف الجوى للأرض يعمل على حماية سطح الأرض من سقوط الكميات الضارة للأشعة ذات الموجة القصيرة (فوق البنفسجية) .

ومن الملاحظ أن هذه الطبقة من الأوزون أخذت تتآكل بسبب تصاعد غاز الكولوروفلوروكربون الذى يتزايد انتاجه بكميات هائلة فى الصناعات الحديثة .

ومن هنا فإن هذا التآكل أخذ يسمح لمزيد من الأشعة فوق البنفسجية بأن ترتطم بسطح الأرض ، وتصطدم بكل الأحياء ، ومن بينها أنواع كبيرة من النباتات التى تستهلك كميات هائلة من غاز ثانى أكسيد الكربون ، الذى أخذ يتزايد هو أيضاً ، مما يهدد بمشكلة كبرى نتحدث عنها فيما بعد هى مشكلة الاحترار ، وقد أخذ الانسان يتأثر هو أيضاً بالزيادة فى الأشعة فوق البنفسجية .

ومن أسوأ العواقب المترتبة على تلك الزيادة : سرطان الجلد ، ومرض اعتمام عدسة العين (الكاتاراكت) وكلا المرضين يزدادان انشاراً ، وبالذات فى مناطق بنصف الكرة الجنوبى مثل استراليا ونيوزيلندا ، وجنوب أفريقيا ، وفى كوينزلاند بشمال شرق استراليا - على سبيل المثال - فإن أكثر

---

(١) الأرض فى الميزان لآل جور ص ٨٥ - ٨٧ .

من ٧٥٪ من السكان الذين بلغوا الخامسة والستين من العمر مصابون الآن بنوع من سرطان الجلد .

والأطفال مطالبون هناك بحكم القانون بأن يرتدوا قبعات كبيرة ووشاحا حول العنق خلال ذهابهم للمدرسة والعودة منها ، لتحميهم من الأشعة فوق البنفسجية ، وفى إقليم بتاجونيا يقول الصيادون إنهم يعثرون على أرانب فاقدة البصر ، وأسماك عمياء .

وبالنسبة للانسان فإن زيادة معدلات الأشعة فوق البنفسجية ـ وبالاضافة لأمراض الجلد والعيون ـ تثبط جهاز المناعة وتعجل بظهور الأمراض الجديدة المتعلقة بهذا الجهاز [1] ، ومنذ اكتشاف ثقب الأوزون وهو يزداد عمقاً واتساعاً ، وهو يغطى حالياً فى الغلاف الجوى مساحة تعادل ثلاثة أمثال مساحة الولايات المتحدة الأمريكية .

(٤) نقص التأكسد : وذلك أنه فى الظروف العادية ينظف الغلاف الجوى نفسه ـ بسنة الله فى الطبيعة ـ من الملوثات من خلال عملية تعرف بالتأكسد ، حيث تتفاعل المواد والغازات الضارة مثل الميثان وأول أكسيد الكربون مع منظف طبيعى إلهى يعرف باسم الهيدروكسيل ، واليوم فى ظل الحضارة الصناعية فإن الانسان يدفع بكميات هائلة من غاز أول أكسيد الكربون فى الطبقات العليا من الجو ـ من خلال عمليات حرق الوقود وحرق الغابات ـ لدرجة أن حجمه أصبح طاغياً بالقياس إلى الكمية المتاحة فى الطبيعة من الهيدروكسيل ، وبهذا تتزايد كميات أول أكسيد الكربون وغاز الميثان فى العلاف الجوى بسرعة كبيرة ، وأصبح له دوره الفعال بين الغازات الأخرى المسببة لظاهرة الاحترار ، وهنا يأتى الخطر الاستراتيجى العالمى ، ألا وهو ظاهرة الاحترار وهو الأشد خطورة على الإطلاق ، على مستوى الكرة الأرضية كلها .

(٥) ولب المشكلة فى ظاهرة الاحترار هو أن الحضارة الحديثة ـ طبقا لخطوات التقدم الصناعى ـ تضيف إلى الغلاف الجوى العديد من

---

(١) الأرض فى الميزان ص ٨٩ ـ ٩٠ .

الغازات التى تجعل الغلاف الجوى أكثر سُمكاً بدرجة كبيرة ونتيجة لذلك فإنه يحتجز المزيد من الحرارة ، التى كان من المفروض ـ فى ظل موازين الله ـ أن تخرج من جو الأرض فى الأحوال العادية السابقة .

فى السابق كانت تحدث تغيرات فى حرارة الأرض على مدى عصور جيولوجية طويلة ، فعلى سبيل المثال كان ما يعرف الآن بمدينة نيويورك يقع فى العصور الجليدية تحت ارتفاع كيلو متر كامل من الجليد ، كانت هذه التغييرات تحدث بحكمة الله وعنايته وقدرته ورعايته على مدى آلاف السنين .

أما التغيرات التى يتوقعها الخبراء بفعل الإنسان المعاصر فإنها من المنتظر أن تحدث خلال عمر فرد واحد ، ومعنى هذا أنه عندما كانت التغيرات تحدث بسنة الله ، ودون تدخل الإنسان ، كانت الفرصة متاحة للإنسان للتكيف ، ولكنه لم يحدث فى تاريخ الإنسان أن أضطر للتكيف مع تغيرات هائلة فى عمر جيل واحد .

إن الإنسان منذ بداية الثورة الصناعية ينتج كميات متزايدة من ثانى أكسيد الكربون ويدفعه إلى الغلاف الجوى ، حيث ارتفعت نسبته فى الجو من : ٣٠٠ جزء من المليون فى تاريخ الأرض سابقاً إلى ٦٠٠ فى المليون منذ الحرب العالمية الثانية إلى اليوم ، وسوف تتضاعف هذه النسبة كما يتوقع الخبراء ... إذا سارت الأمور على ما هى عليه خلال أقل من الخمسين عاماً القادمة .

وذلك بسبب عمليات الاحتراق فى الفحم والبترول والغاز الطبيعى والبنزين والتدمير السريع للغابات [1] ، ومن المؤكد أن هذه الزيادة فى مستويات ثانى أكسيد الكربون ـ الذى سيظل محبوساً فى الغلاف الجوى للأرض ـ تؤدى إلى زيادة ملحوظة فى مستوى الحرارة للكرة الأرضية .

---

[1] الأرض فى الميزان لآل جور صـ ٩٥ ـ ٩٧ .

والخطر هنا لا يكمن فى ارتفاع درجة الحرارة بضع درجات قليلة ، ولكنه يكمن فى أن هذا الارتفاع سوف يؤدى إلى الإطاحة بالنظام المناخى للعالم كله دفعة واحدة .

لقد تعودنا أن نتقبل الطقس كحقيقة قدرية ، ولكن من هذه الحقيقة أيضاً أن المناخ يؤدى وظيفته فى إطار حالة من التوازن الإلهى على مستوى الفصول والأقاليم .

وهنا يأتى الاحترار العالمى الذى يتسبب فيه الإنسان المعاصر ليحمل من المخاطر ما يفوق كثيراً إضافة درجات قلية لمتوسط درجات الحرارة ، إنه يهدد بتدمير التوازن المناخى الذى عرفته الإنسانية من قبل .

وعندما يتغير النمط المناخى للعالم فإنه ستتغير أيضاً تحركات الرياح والأمطار ، ونوبات الفيضان ، والجفاف والمراعى والصحارى والحشرات والحشائش ، وفصول الرخاء والمجاعة ، ومواسم الحرب والسلام .

والخطر الذى يترتب على اختلال النظام المائى على ظهر الأرض لا يتوقف على الاضطراب الشديد فى إعادة توزيع الموارد المائية العذبة ، وإنما يتعداه إلى خطر استراتيجى ثان : هو ذوبان الجليد ، ومن ثم ارتفاع مستوى سطح البحر ، وغرق المناطق الساحلية الواطئة حول العالم كله ، وهذا يهدد دولاً مثل بنجلاديش ، والهند ، ومصر ، وجامبيا ، وإندونيسيا ، وموزمبيق ، وباكستان ، والسنغال ، وتايلاند ، والصين ، وجزر المالديف ، وهولندا ، وبلجيكا ، وسوف تكون الدول الفقيرة بالطبع هى الأكثر تضرراً ، لأنها الأضعف من حيث القدرة على مواجهة هذه الأخطار [1] .

(٦) اقتلاع الغابات : وهناك خطراً استراتيجى يمارسه الإنسان المعاصر ، ويهدد النظام المائى لكوكب الأرض .

---

[1] الأرض فى الميزان لآل جور صـ ١٠٢ وما بعدها .

وهو يختص باقتلاع الغابات على نطاق واسع ، حيث أن تدمير غابة يمكنه أن يؤثر فى النظام الطبيعى لتوزيع المياه بما يمثل اختفاء بحر كبير مغلق .

ونجد مثالاً مأساوياً بذلك فى أثيوبيا ـ لفقدان الغابات ثم فقدان المياه ، فقد تقلصت مساحة الأراضى التى كانت تغطيها الغابات فى أثيوبيا من ٤٠ ٪ إلى ١ ٪ خلال الأربعين سنة الماضية ، وبالتوازى مع ذلك تراجعت كميات الأمطار المتساقطة ، إلى درجة جعلت الأراضى ، تتحول بسرعة إلى أرض بور ، ثم دخلت البلاد بعد ذلك ـ مع تضافر أسباب أخرى ـ فى مأساة المجاعة والحرب الأهلية ، وفى جنوب أمريكا هناك خطر مماثل ، بسبب تدمير الغابات [1] .

(٧) ويتعرض النظام المائى العالمى لخطر آخر بسبب تلوث مصادر المياه على مستوى العالم بالملوثات الكيماوية التى تنتجها الحضارة المعاصرة، ويأتى انسكاب البترول كواحد من أكثر الملوثات وضوحاً فى المحيطات ، وفى بعض الأنهار الداخلية .

وهل سمعتم من قبل عن أنهار تشتعل فيها النيران ؟ لقد حدث ذلك فى نهر كياهوجا فى ولاية كليفلاند ، وفى الاتحاد السوفيتى فإن الأنهار ـ كما يقول آل جور ـ ما زالت يمكن أن تشتعل فيها النيران .

وقد حدث فى شهر يوليو عام ١٩٨٩ عندما كان أحد عمال الزراعة فى أوكرانيا يسير بجوار نهر فورين ، وهو يجمع نبات عيش الغراب أن ألقى بعقب سيجارة فى مياه النهر ، فما لبث النهر أن أحدث فرقعة شديدة ، واشتعلت فيه النار لمدة خمس ساعات بسبب البترول الذى كان قد سكب عليه مؤخراً .

---

[1] الأرض فى الميزان صـ ١١٠ .

وبصفة عامة ،فإن تلوث مصادر مياه كوكب الأرض آخذ فى الزيادة بصفة مستمرة ، ويزداد سوءاً بصورة مفزعة ، وطبقاً لعملية مسح قامت بها وكالة متخصصة فى حماية البيئة فإن حوالى نصف أنهار وبحيرات وجداول أمريكا إما أنه يعانى بالفعل من تلوث مياهه أو فى طريقه إلى ذلك .

ومع ذلك فإن تلوث المياه وتأثيراته الرهيبة المؤلمة يمكن الاحساس بها بوجه خاص فى العالم الثالث ، حيث زاد معدل الوفيات الناتج عن الإصابة بالكوليرا والتيفود والدوسنتاريا والإسهال .

وإن ما يزيد عن ١,٧ مليار نسمة ليس لديهم مورد كاف من مياه الشرب الآمنة النظيفة ، وأكثر من ثلاثة مليارات نسمة لا تتوافر لهم وسائل الصرف الصحى المناسب ، وإن الأمراض التى تحملها المياه تتسبب فى المتوسط فى وفاة ٢٥ ألف شخص يومياً فى العالم الثالث [١] .

(٨) سوق النفايات : تتمركز سياسة الدول الغربية والأوربية ـ كما يقول مسئول بمنظمة الصحة العالمية ـ حول إدراك سياسى واقتصادى بأن العالم الثالث هو سوق كبير للنفايات الأوربية التكنولوجية ، الملوثة والمدمرة للبيئة ولبيع المبيدات والبذور الفاسدة المؤثرة على صلاحية التربة الزراعية ، وإجراء التجارب على البشر والزراعة ، فضلاً عن الأغذية الفاسدة والأدوية التى تجعل من البشر فى العالم الثالث حقلاً لتجاربها ، وقد أعلن فى تقارير رسمية نشرتها الصحف فى أمريكا أن لديها ٢٦٥ مليون طن من هذه النفايات سنوياً تحتاج إلى التخلص منها ، وأن مجموعة دول السوق الأوربية لديها سنوياً ٣٥ مليون طن سنوياً .

ويقول بعض المعلقين إن تجارة النفايات الكيمائية أصبحت كبيرة جداً، وتعمل فيها شبكة من المافيا والسماسرة والمهربين .

---

[١] الأرض فى الميزان ١١٣ ـ ١١٤ .

حتى فيما يتعلق بالسجاير ، فإن دول المجموعة الأوربية تقوم بالتخلص من التبغ الثقيل الذى يحتوى على نسبة عالية من النيكوتين عن طريق تصديره إلى العالم الثالث بأسعار رخيصة .

وابتداء من عام ١٩٩٣ تتضاعف صادرات المجموعة ثلاث مرات بعد تطبيق القوانين الجديدة التى تحد من كمية النيكوتين فى السجاير المباعة فى أوربا ، وذلك بعد ارتفاع معدل وفيات المدخنين للتبغ بدرجة تهدد الصحة العامة للمواطنين فى هذه الدول [١] .

(٩) احتمالات الكوارث النووية : ما الذى يمكن أن تحدثه حرب ذرية فى البيئة ؟

سؤال طرحته منظمة الأمم المتحدة على عشرة من كبار علماء العالم واستغرقت الدراسة حوالى عام كامل ، وتم تسليمها إلى بيريزدى كويلار السكرتير العام للأمم المتحدة آنذاك :

وقد قدمنا نتائج هذه الدراسة فى الصفحات السابقة [٢] .

منشأ الكارثة :

ذلكم تلخيص موجز عن حجم المشكلة التى تهدد البيئة على مستوى الأرض كلها .. والحق أننا ونحن نتحدث عن مشكلة الأرض والإنسان فى العصر الحديث على هذا النحو ، يجب أن نعلم أننا نتحدث عن نوع " جديد " من الإنسان غير الذى يعرف على وجه التاريخ الإنسانى من قبل ، كذلك ونحن نتحدث عن وضعية الأرض فإننا نتحدث عن وضعية غير التى عرفها الإنسان على وجه التاريخ الطبيعى من قبل ، فالإنسان الجديد هو نوع جديد لم يعد يشرك بالله آلهة أخرى تنتسب إلى كائنات علوية ، أو سفلية مجردة أو غير مجردة ، يحصل عليها من مصدر الحكايات والأساطير والأصنام ، أو التراث الشعبى ، ولكنه أصبح يضع نفسه ــ حسب زعمه ــ فى موضع

---

[١] أنظر جريدة الأهرام صـ ٧ فى ١٩٨٨/٩/١٧ ، ونفس الجريدة فى ١٩٩٠/٥/٢٦ م .

[٢] أنظر صـ ٩٣ من هذا الكتاب .

الألـوهية مـنذ أمـكنـة ـ حسب وهمه ـ أن يسيطر على الطبيعة بأداة العلم ﴿ **أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فتشابه الخلق عليهم** ﴾ .

كذلك فالأرض ليست هـى الأرض الموكول أمرها إلـى قدرة اللـه وعنايته ورحمته وموازنته ، ولكنها الأرض المتروكة بسخط الله ـ وإلى أمد ـ إلى قدرة الإنسان فى السيطرة على الطبيعة حسب زعم هذه الحضارة منذ وضع الإنسان أركانها فى عصر النهضة .

إن الصانع لمأساة البيئة ـ مأساة الأرض ، هو وجهـة النظـر الفلسفية التى قامت عليها الحضارة المعاصرة .

يقرر أرنولد توينبى(أن وجـود الإنسـان يهدد الآن صلاحيـة المحيط الحيوى للعيش فيه لكل أشكال الحياة بما فى ذلك الحياة البشرية نفسها .) [1].

ويقول (فى حداثتـى ـ أنـا مولـود سنة ١٨٨٩ م ـ كان يعتبر من الوهم أن يتخيل المرء أن الإنسان قد يملك من القدرة ما يمكنه من تلويـث كل الجو المغلف للمحيط الحيوى .... وفى حقيقة الأمر فـإن البشـرية كـانت إلـى الربع الثالث من القرن العشرين الميلادى تقلل من أهميـة التزايد الحديث فـى قدرتها على التأثير على المحيط الحيوى ، وقـد نتـج هذا التزايد مـن تحولين جديدين : أولهما متابعة البحث العلمى المنظم الهادف وتطبيق هـذا علـى تقدم التكنولوجيا .. وثانيهما : تسخير الطاقة الطبيعية الموجودة فى المحيط الحيوى لخدمة الأغراض البشرية ..) .

ثم يتحدث عن خطر هذا التحول فى المحيـط البشـرى فيقـول : (هـذا النجاح المنذر بالشر للتكنولوجيا العلمية البشرية ، إضافة إلى النتائج الأصغر للانجـازات السـابقة التـى قـامت بهـا الثـورة الصناعيـة هـى التـى تهـدد بجعـل المحيط الحيوى مكاناً غير صالح للعيش .) [2] .

---

[1] تاريخ البشرية صـ ٢٦ جـ ١ ، ترجمة " نيقولا زيادة " .

[2] المصدر السابق صـ ٢٨ ، ٢٩

وهو يقول (في عصرنا نجد أن سيادة الإنسان التامة على المحيط الحيوى بأكمله تهدد بإحباط نوايا الإنسان ، وذلك بتحطيم المحيط الحيوى والقضاء على الحياة بما فى ذلك الحياة البشرية كلها .) [1] .

يذكرنا أرنولد توينبى بوجود هذا التوجه ـ السيطرة على الطبيعة ـ فى الثقافة اليهودية القديمة ، فى العدد الثامن والعشرين من الاصحاح الأول من سفر التكوين القائل : " وباركهم الله ، وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر ، وعلى طير السماء ، وعلى كل حيوان يدب على الأرض [2] " .

ثم يشير إلى مخالفة هذا التوجه لما جاء فى ثقافات أخرى إذ يحكى على لسان تاوتى تشينج قوله : (كلما ازدادت الأسلحة الحادة تزداد الأرض كلها انغماساً فى الظلام ، وكلما ازداد عدد الصناع الحاذقين تزداد الآلات المتلفة التى تخترع ، وكلما ازدادت القوانين التى تشرع يزداد عدد اللصوص وقطاع الطرق .

شد القوس إلى النهاية وستتمنى لو أنك توقفت فى الوقت المناسب .

وإنه مع وجود آلات مع الناس تقتضى عملاً عشر مرات أو مائة مرة فإنهم لن يستعملوها [3] .

وقد يكون هناك بعد قوارب وعربات ، ولكن أحداً لن يدخلها ، وقد يكون هناك أسلحة للقتال ، ولكن لن يتدرب عليها أحد .) [4] .

ويتفق آل جور ـ وهو أحد كبار القيادات المسئولة فى هذه الحضارة مع التحليل الذى وصل إليه أرنولد توينى للمشكلة يقول آل جور :

---

[1] المصدر السابق صـ ٣١ .

[2] تاريخ البشرية صـ ٣٠ ، جـ ١ .

[3] من الذى سيستعمل ألف قناة تليفزيونية يتيحها له جهاز واحد ؟ !

[4] المصدر السابق صـ ٣٠ ، جـ ١ .

(إن الثقافة الغربية المعاصرة تقوم على افتراضات متعلقة بالحياة ، يتم تلقينها للأطفال ، ألا وهى : إن الطبيعة يتعين إخضاعها) .

(وهى افتراضات انتقلت من جيل إلى جيل ، منذ زمن ديكارت وبيكون ، ورواد الثورة العلمية الآخرين ، أى منذ ٣٧٥ عاماً مضت ، وقد استوعبت هذه الحضارة تلك القواعد ، وتعايشت معها قروناً دون أن يراجعها أحد بجدية) ، وهو يربط بين هذه العقيدة الحضارية وبين أزمة البيئة المعاصرة ، ثم يقول :

(إن الأزمة البيئية بلغت اليوم حداً من الخطورة يجعلنا نعتقد أن حضارتنا يجب أن تعتبر بطريقة أساسية مختلة الوظائف ، وأن إحدى القواعد التى تقوم عليها الحضارة مختلة الوظائف هى أنك لا يمكنك مراجعة هذه القواعد أو مناقشتها) .

كأنه يتطابق فى ذلك مع قوله تعالى : ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم** ﴾ ٧ البقرة .

ثم يقول شرحاً لهذا الختم : (إن رجال البوليس والأطباء ، وعلماء النفس يعجبون كثيراً كيف يستطيع أى شخص أن يصم أذنيه فلا يسمع صرخات القتيل الذى يذبحه ، ولا يرى أحزان الطفل الذى يعتدى عليه ، وكيف يخدر حواسه فلا يشعر بالآلام الشنعاء ... ؟

إننا نعرف الآن الإجابة على هذه الأسئلة : ذلك أن هناك نوعاً من الخدر النفسى الناتج عن تكيف الأشخاص البالغين مع النمط مختل الوظائف الذى شبوا عليه ، إن حضارتنا مختلة الوظائف قد طورت نوعاً من الخدر ، ليمنعنا من الشعور بالألم نتيجة أفعالنا ، إن حضارتنا تستطيع أن تتغير ، وينبغى لها أن تفعل ، بأن تواجه القواعد المسلمة غير المدونة ، التى تدفعنا لتدمير الأرض) .

ثم يقول فى تشخيص أمراض الحضارة التى أدت إلى أمراض هذه البيئة ـ يقول فيما يعتبر مصداقاً لقوله ﷺ عن الكافر أنه يأكل فى سبعة أمعاء ....

يقول : (كل جيل جديد فى حضارتنا المعاصرة يشعر الآن بالاعتماد الكامل على تلك الحضارة نفسها . ذلك أن حضارتنا هى التى تزودنا بأنواع الطعام فوق أرفف السوبر ماركت ، والماء المتدفق من الصنابير داخل بيوتنا والمأوى ، والمأكل ، والملبس ، والعمل ، ووسائل التسلية .... إن أحداً لا يجرؤ على مجرد التفكير فى حرمان أنفسنا من هذه العطايا الكثيرة [1]) وهى وإن كانت أمعاءً سبعة ، إلا أنها أمعاء زائفة ، يقول : (إننا شيدنا فى حضارتنا عالماً زائفاً من الزهور البلاستيكية وحليات السباق الفلكية ، وأجهزة التكييف ، وأنوار الفلورسنت ، والنوافذ الشكلية التى لا تفتح ، والموسيقى الخلفية التى لا تتوقف ، والليالى الوهاجة بالبريق ، ومواخير التسلية وأوكارها، والطعام المجمد لأفران المكروويف ، والقدرات الذهنية التى تعتمد على الكافيين ، والكحول ، والمخدرات ، والأوهام والخيالات ....

إن العديد من القواعد غير المدونة لحضارتنا مختلة الوظائف يشجع على الإذعان الصامت فيما يختص بأنماط السلوك المدمر التى نتعامل بها مع عالم الطبيعة .. [2]، ثم يقول : (إن المرء يكاد يصيبه الهلع من جراء اندفاعنا المسعور والقسرى الواضح ، لكى نفرض سيطرتنا على كل بقعة فوق ظهر الأرض) ودائماً فإن حاجات الحضارة التى لا يتم إشباعها تزيد نيران العدوان اشتعالاً ، والوصول إلى اشباع حقيقى لهذه الحاجات هو أمر بعيد المنال تماماً) . ثم يقول فيما يعتبر مصداقاً لتحذير الرسول ﷺ جماعة استهمت على سفينة ، فيذهب من فى اسفلها يخرق فيها خرقاً ليحصل على الماء .. فإذا تركهم من فى أعلاها يفعلون غرقوا جميعاً ، وإذا منعوهم نجوا جميعاً .. يقول (إن الأراضى التى يتم غزوها ـ يقصد بالتكنولوجيا الحديثة ـ لا تلبث أن تصبح أرضاً جدباء خربة ، وقد انتزعت منها خصوبتها ، وسلبت مواردها الطبيعية ، واستهلكت على وجه السرعة ، وكل هذا التدمير لا يؤدى

---

[1] الأرض فى الميزان صـ ٢٣٣ .

[2] الأرض فى الميزان صـ ٢٣٤ .

إلى شئ سوى إذكاء شهيتنا للمزيد ، إننا نقوم بشكل منتظم بالاعتداء على أكثر مناطق عالم الطبيعة تعرضاً للخطر وأقلها قدرة على الدفاع عن نفسها : تلك هى الأرض المطيرة والمحيطات ..) ثم يقول : (ونحن أيضاً نعتدى على أعضاء آخرين من الأسرة الإنسانية ، وبخاصة أولئك الذين لا يستطيعون التعبير عن أنفسهم ، لقد سمحنا بسرقة الأرض من السكان الأصليين ، وباستغلال المناطق التى يسكنها أشد الناس فقراً .

والأسوأ من ذلك كله أننا قمنا بالعدوان على حقوق الأجيال التى سوف تأتى بعدنا ، فعندما نقوم بتجريف الأرض بمعدلات تفوق قدرتها على الاحتمال تماماً فإننا نجعل من المستحيل على أحفادنا أن ينعموا حتى بمستوى معيشة يقل كثيراً عما ننعم به نحن .

إننا الآن نفرض نموذجنا مختل الوظائف وإيقاعنا المتنافر على أجيال المستقبل ، ، وذلك بطريقة فاسدة [1] .)

الحل الغربى للمأساة : من الغريب أن بعض المفكرين والمخططين من أبناء الحضارة الغربية المعاصرة يدعون إلى علاج الكارثة عنصرياً فيقترح بعضهم :

١ - تبنى مسلسل " الكوارث المحسوبة " بالنسبة للبيئات الخاصة بالسكان بلا إنتاج (!!) ، يعنون بذلك " العالم الثالث " .

٢ - أو دفع هذا العالم ـ بالذات ـ إلى تحديد النسل بكل الوسائل والسُبل .

٣ - أو تشجيع الحروب المحلية فى العالم المذكور .

٤ - أو بتعميم الجفاف على أرضه وفق تخطيط معين .

---

[1] الأرض فى الميزان لآل جور صـ ٢٣٤ وما بعدها .

٥ - أو بنشر التلوث المقنن فيه [١] .

وهناك فئة من العلماء تكتسب أهمية يوماً بعد يوم يطلق عليهم علماء " الأيكولوجيا العميقة " يبنون تصورهم للحل على أساس نظرتهم للإنسان باعتباره نوعاً من أنواع الفيروس ، أصاب الأرض بالطفح الجلدى والحمى ، وينسبون إليه القيام بدور سرطان يهدد الكرة الأرضية وينتشر فيها على نحو لا يمكن التحكم فيه ، واستمراراً لهذه الرؤية فإن العلاج الممكن الوحيد لأمراض الأرض التى أصابتها هى (استئصال الناس من على وجه الأرض) باستثناء فئة محدودة ينتسبون هم إليها ، باعتبار أنهم يقومون عندئذ بدور الأجسام المضادة للحد من انتشار المرض [٢] .

وهناك فئة أخرى تشير إلى أن البداية الصحيحة تأتى من خلال تغيير النفس ، ومن ثم تغيير القواعد التى بُنيت عليها هذه الحضارة المعاصرة .

يقول أرنولد توينبى (يظهر أن الإنسان لن يستطيع إنقاذ نفسه من الدمار الذى تسببه قوته المادية وطمعه الشيطانيان ما لم يسمح لنفسه بأن تتغير نفسه كلياً ، بحيث يحفزه ذلك إلى أن يتخلى عن غايته الحالية ، ويعتنق المثل الأعلى المخالف لذلك تماماً .... فهل باستطاعته أن يقبل .. ؟؟

إن المناظرة حول هذه القضية التى طال عليها الزمن والتى يبدو وكأنها تكاد تبلغ نهاية تصعيدها يومنا هذا هى الموضوع الذى يتناوله التاريخ للصدام بين البشرية والأرض الأم ...) [٣] .

إنه فى نظر كثير من الخبراء والباحثين لا أمل فى مواجهة كارثة البيئة المتفاقمة ما لم يُعدّل الإنسانُ من سلوكه بالنسبة للأرض ، وجهاز

---

[١] أنظر " نهاية عمالقة " للأستاذ الدكتور / رشدى فكار صـ ١٣١ .

[٢] الأرض فى الميزان صـ ٢١٩ ـ ٢١٠ ، وهم بذلك يدفعون منطق التطور إلى نتائجه الحقيقية .

[٣] تاريخ البشرية صـ ٣٢ جـ ١ .

الضبط الحرارى [1] الوحيد القادر على منع هذه الكارثة ، كما يقول ــ آل جور نائب رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية ــ هو ما يكون فى داخل رءوسنا وقلوبنا وعقيدتنا [2] يقول آل جور : (إنه إذا كانت أزمة البيئة العالمية ضاربة الجذور فى النمط مختل الوظائف ، المميز لعلاقة حضارتنا بعالم الطبيعة ، فإن الخطوة الأولى فى الحل تتمثل فى مواجهة هذا النمط .. وفهمه بالكامل وإدراك أثره المدمر على البيئة ، وعلينا أن ننتقل من مفهوم السيطرة على الأرض إلى مفهوم آخر) [3] .

إننا نزكى هذه البادرة المضيئة والتى تشير إلى بداية الحل الصحيح للمشكلة فى رحاب قوله تعالى ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ .

إن العلاج لا مفر له من أن يعود إلى تفكير الإنسان فى طريقة معيشته ، إن أزمة التخلص من الفضلات مثلاً وهى أزمة عالمية ــ وهى أهون مشاكل أزمة البيئة المعاصرة ــ هذه الأزمة تنبع من أسلوب هذا الإنسان فى الإنتاج والاستهلاك ، إنها تنبع من فهمه للاقتصاد ، تنبع من فهمه لعلاقته بالحياة الدنيا . تنبع من تكوينه العقدى الذى يصوغ علاقته بالطبيعة ، وعلاقته بالله . إن كل الأنواع الحية تنتج فضلات وجميعها بغير استثناء يمر بعمليات " إعادة التدوير " ليس بواسطة تلك الأنواع الحية نفسها، ولكن بأشكال أخرى من الحياة ترتبط معها بعلاقات التكامل والتوازن . وتقوم سُنن الله فى الطبيعة بفصل العناصر ذات السمية لتدخلها فى عمليات بطيئة لتحولها إلى مواد غير سامة ، وهذا بالطبع يفترض المحافظة على علاقات التوازن التى وضعها الله بين الأنواع الحية .

---

[1] " الترموستات " .

[2] الأرض فى الميزان صـ ٩٥ .

[3] أنظر الأرض فى الميزان من صـ ٢٣٢ إلى صـ ٢٣٩ .

وإذا حدث أن تخطى أحد هذه الأنواع حدوده المرسومة له فى هذا النظام ـ كشأن الإنسان المعاصر فى طموحه للسيطرة على الطبيعة بواسطة العلم ـ فإن هذا النوع يتعرض لخطر أن يصبح عاجزاً عن الهرب من النتائج المترتبة على زيادة فضلاته ، فضلاً عن ذلك فإن احترام سُنن الله فى الطبيعة من شأنه أن يساعد على عدم إنتاج مشكلة الفضلات أصلاً ، ذلك لأن فضلات أحد الأنواع الحية تصبح مادة نافعة لنوع حى آخر ، هذا ولأننا نحن البشر فى ظل قيمة السيطرة على الطبيعة من قيم الحضارة المعاصرة ـ قد اكتسبنا ـ كما نتوهم ـ زيادة فى قدرتنا على تشكيل العالم ، فقد بدأنا فى إنتاج فضلات خرجت من ناحية كميتها واحتمالاتها السمية ، على الميزان الإلهى الموضوع لامتصاص هذه الفضلات ، ونتيجة لذلك فإن هذا الإنسان الذى استبعد عقيدة الألوهية ، وتعامل معها من موقف حيادى ، أو على الأقل أنكر عقيدة العناية الإلهية .. هذا الإنسان أصبح ـــ وفقاً للنواميس الإلهية نفسها " متروكاً لنفسه " وكان عليه أن يبحث عن طريق مستقل عن الله ﴿ **قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ، فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً** ﴾ ، ويقول تعالى ﴿ **نسوا الله فنسيهم، إن المنافقين هم الفاسقون** ﴾ ١٦٧ التوبة .

إن المطلوب هو تغيير يتناول أعماق النفس .

إن المطلوب هو طريقة جديدة فى إنتاج السلع الاستهلاكية والتعامل معها .

لقد يسر الإنتاج الضخم للناس أن يمتلكوا منتجات الحضارة الصناعية المرغوبة بدرجة أكبر ، وينظر إلى هذا التطور على مستوى العالم كله تقريباً باعتباره خطوة كبرى إلى الأمام .

والحقيقة أنه حقق فعلاً تقدماً هائلاً فى مستوى المعيشة ونوعية الحياة، لمئات الملايين من البشر ، ومع ذلك فمن خلال تلك العملية لم تصبح المنتجات متاحة فقط ، ولكنها أصبحت رخيصة أيضاً ، ولما كان فى الإمكان استبدال منتجات أخرى بها مماثلة لها وأرقى منها ، فلم يعد هناك لدى الإنسان

المتحضر المعاصر ، ما يدعوه لحمايتها أو إدخارها ، أو العناية بها كما كان الحال فى الماضى .

وإذا ما واظب هذا الإنسان على عاداته الاستهلاكية فسوف تنتصر القمامة فى نهاية الأمر وفقاً لما يقوله المفوض العام السابق للشئون الصحية بولاية نيويورك (يستطيع الناس التذمر من أفران حرق القمامة كما يحلو لهم، بل إنهم يستطيعون أن يثيروا الجدل حولها ، أو يرسلوا شكواهم بشأنها للصحف ، لكن فى النهاية يكون النصر للقمامة) .

إن المشكلة ترجع إلى صميم التكوين النفسى ، ومن ثم الفكرى ، والعقدى لإنسان هذه الحضارة الذى تم صياغته فى نسيج حضارة زعمت أنها محايدة فيما يتعلق بالله ، فهى منفصلة عنه ، واتجهت إلى تأليه الإنسان ، وتأليه العلم ، ورفعت شعار السيطرة على الطبيعة ، منذ بدء عصر النهضة ، بدلاً من شعار " الانسجام " مع هذه الطبيعة ، ضمن منظومة العناية الإلهية التى يقررها الدين .

إنه كما يقول آل جور : (ما لم نعثر على طريقة نغير بها على نحو جذرى حضارتنا وطريقتنا فى التفكير فيما يتصل بالعلاقة بين الجنس البشرى وكوكب الأرض فإن أولادنا سيرثون أرضاً خراباً) . إنه كما جاء فى بعض المؤتمرات الإسلامية التى عقدت فى أوربا : (إن السبب الحقيقى لما آلت إليه البيئة من وضع متدهور وخيم العاقبة تجاوز حدود التحمل الطبيعى إنما هو اعتزاز الإنسان ـ غير المؤمن بوجود الله ـ اعتزازه بجبروته ، حيث سولت له نفسه بأنه السيد المسيطر على الطبيعة والبيئة ، فاعتقد ذلك يقيناً ، وسغبه الاستهلاكى النهم بلا حدود ، لكل ما يشبع ملذاته على حساب الطبيعة ، سادراً فيها ، لا يرعوى ولا يرعى لها حقاً ، كأنما ليس لغيره حق مستقل فى الوجود السليم الذى لا يضار فيه) [1] .

---

[1] مؤتمر مرور ربع قرن على إنشاء المركز الإسلامى فى آخن بألمانيا فى يوم ١٧مايو ١٩٨٩ ، أنظر كتاب (الإسلام كبديل لمراد هوفمان) .

إننا نصل من ذلك إلى أن الصانع الرئيسى لكارثة البيئة المعاصرة ، هو مشروع الحضارة الغربية الذى قام بتصميمه المهندسون " المحايدون فى العقيدة الإلهية " ولا يزالون يشرفون على مساره ويدفعون خطواته حتى الخطوة الأخيرة ، فى أعماق الهاوية ، ولن يتراجعوا لأنهم اجتازوا نفسياً وتاريخياً نقطة الرجوع ، ما لم يبادر صاحب المصلحة وهو الإنسان ـ إلى تغيير نقطة البدء فى صناعة الحضارة ﴿ **إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً** ﴾ ٦٨ النساء .

إن نقطة البدء فى الحل لن تكون بمزيد من الارتباط بمنطلقات هذه الحضارة (السيطرة ـ الاستهلاك ـ العلم وحده) .

ذلك لأن الكارثة إنما تقبل علينا من واقع تقدم هذه الحضارة ، فهل يمكن لهذه الحضارة أن تقدم الحل ؟ إذن لا تكون هذه الحضارة هى نفسها ، إن الحل لا يتصور مجيئه من هذه الحضارة بتركيبتها التى بدأت وآلتها التى انطلقت منذ عصر النهضة لأنها إنما قامت على استبعاد الدين .

يقول هارولد لاسكى المفكر السياسى الشهير : (إن منهج الغرب فى الحياة قد وضع فى بوتقة الانصهار وصارت العلوم ـ سواء علوم الطبيعة أو علوم الحياة ـ جزءا من رد الفعل شبه التلقائى ، وتفتقر إلى الهدف ، فهى لا تقدم لنا شيئاً غير تلك القيم التى تشيع الفوضى ، وفى مقدور هذه العلوم أن تتيح شيئاً من الرفاهية المادية ، ولكن يبدو أنها عاجزة عن اكتشاف مبادئ الرضا الروحى) [1] .

ونضيف : إنه حتى فى مجال الحياة المادية فقد وصلت هذه الحضارة إلى نقطة الانحدار الرهيب بيئياً ، إن كثيراً من فلاسفة العلم المعاصر يتحدثون عن (التقدم الفكرى والعلمى ـ وهو أكبر مفخرة لما أتاه الإنسان الحديث ـ على أنه مجرد أحبولة وخداع ، وأن هذا العالم الحديث قد أعطى

---

[1] أنظر كتابه (محنة الديمقراطية ، جـ ١ ، صـ ١٢٢ ـ ١٣ مترجم) .

مكاناً مركزياً فى الحضارة لجزء من الحياة البشرية ، ليس سوء جزء صغير بالنسبة إلى تلك الأجزاء التى تعمل على التقدم الإنسانى) .

إن حماسة كوندرسيه ، وجون ستيورات مل للعلم الحديث وإيمانهما بالعلم ، وأملهما فى المستقبل تنبذ جانباً الآن على أنها أوهام قوم معرفتهم بالطبيعة البشرية سطحية جداً مثل مفهومهم لإمكانات الحياة البشرية ومعضلاتها) [1] .

ونحن نقول : العيب ليس فى العلم ولكن فى وضعه بعيداً عن الله .

ثم يقول تشارلز فرانكل : (لن نفلح فى بناء حضارتنا على أساس ثابت وطيد إلا إذا تخلصنا نهائيا من الفكرة السطحية عن الحضارة ، هذه الفكرة التى نتشبث بها ، وتملك علينا أنفسنا ، ثم نأخذ من جديد بالنظرة الأخلاقية ويقول (يجب أولاً أن نكون متأهبين للعمل الإيجابى فى العالم وفى الحياة ، ويجب ثانياً أن نكون أخلاقيين) [1] .

فهل هناك أمل فى أن تقوم حضارة بُنيت على مبادئ ثابتة ظلت تعمل وفقاً لآليتها مدة قرون أن تقوم بدور فى تغيير جلدها ؟ مرة أخرى إنه لابد لهذه الحضارة كما يقول تشارلز فرانكل أيضاً من أن تقوم بالتغيير لا عن طريق الوعظ... ولكن لابد من أن تنشأ العقلية الإيجابية الأخلاقية التى تنبع من نظرة عقدية تشمل الكون والحياة ، ثم يقول بما يشبه اليأس (هذا هو المصير الذى انتهينا إليه : لقد فقدنا كل نظرية فى الكون) [2] .

إن حل المشكلة يتطلب إعادة نظر الإنسان المعاصر فى موقفه من كيانه الروحى .. يحلل أرنولد توينى المشكلة فيرجعها إلى غفلة الإنسان عن تكوينه المزدوج بين المادة والروح ، فيقول : (إذا فقد الكائن البشرى روحه

---

[1] أنظر كتاب أزمة الإنسان الحديث لتشارلز فرانكل مترجم صـ ١٥٢ ـ ١٥٣ .

[1] المصدر السابق صـ ٤ .

[2] المصدر السابق صـ ٦ .

فإنه يفقد إنسانيته ، وذلك بأن جوهر الكيان البشرى هو إدراك لوجود روحى خلف المظاهر الطبيعية .. ، .

وبسبب أنه يعيش فى وقت واحد فى المحيط الحيوى وفى العالم الروحى فهو كما وصفه السير توماس براون بدقة : حيوان يرمانى ! وفى كل من الوضعين حيث يشعر أنه منسجم مع الوضع يكون له غاية خاصة ، ولكنه لن يتمكن من متابعة كل من الغايتين ، أو أن يخدم كلا من السيدين بإخلاص تام .... فأى البديلين يختار .... ؟) .

ثم يقول (وفى عصرنا فقط أصبح الاختيار أمراً لا مفر منه للبشرية ككل .) [٣] .

وهذا بالضرورة يشير إلى ضرورة تحديد موقف الإنسان من الحياة الدنيا والآخرة .

فلن يكون الحل فى (إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، وإعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .) .

ولكنه فى الحديث الصحيح لرسول الله ﷺ (من جعل الآخرة همه جمع الله عليه شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة .) .

وهذا الحل هو ما تقدمه الحضارة الإسلامية .

---

[٣] تاريخ البشرية صـ ٣١ ، جـ ١ .